

سمو الفقر

في المصلح الاجتماعي الاعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

- ٢ -

نفسه وهو مهين لها ؛ ألا رب مهين نفسه وهو مكرم لها «
وخَيْرَ صلى الله عليه وسلم أن يكون له مثل «أحد» ذهباً
فقال : لا يارب ، أجوع يوماً فأدعوك ، وأشبع يوماً فأحمدك .
وكان يقول في دعائه ويكثر منه : اللهم أحيى مسكيناً ، وأمتى
مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين .

هذا هو سيد الأمة ، يمسكه فى الحياة نبياً عظيماً ما يخرج
غيره منها ذليلاً محتقراً ، وكأنما أشرق صفاء نفسه على تراب
الأرض فردّه أشعة نور ، على حين يلقى الناس على هذا التراب
من ظلام أنفسهم فلا يبقى تراباً ، بل يرجع ظلاماً ، فكأنهم
يطئون المجهول بخوفه وروعته ؛ ثم لا يستقر ظلاماً ، بل يرجع
آلاماً ، فكأنهم ينبتون على المرض لا على الحياة ؛ ثم لا يثبت
آلاماً ، بل يتحول فورة وتوثباً تكون منه نزوات الحق والجنون
فى النفس . هؤلاء الذين تعيش أنفسهم فى التراب ، ويتمرغون
بأخلاقهم فيه - ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناساً دوداً لا يقع
فى شيء إلا أفسده أو قذّره ؛ أو قوماً سوساً لا ينال شيئاً إلا نخره
أو عابه ، فهم يقعون الخلل فى نظام أنفسهم فاذا هى طائشة تخيل
لهم كأنما اختلت نواميس الدنيا ، وكأن الله قبضهم وبسط غيرهم ،
وشغلهم وفرغ من عداهم ، وابتلاهم على مُسْكَةِ الرزق
بالشهوة المسعورة التى لا تتحقق ، فضر بهم بالمجاهدة التى لا تنقطع ؛
وأنعم على غيرهم فى بسطة الرزق بالشجرة المسحورة التى لا تُقطع
منها ثمرة إلا نبت غيرها فى مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يكن
له عتيدٌ حاضر ، وأنه لم يجعل نفسه فى همّ المال ، ولا جعلته نفسه
فى همّ الفقر ، وأنه لقي الحياة حاملاً لا محمولاً ، واستقر فيها هادئاً
لا مضطرباً - كل ذلك إنما يثبت للدنيا أنه خلق وُبُعث وعاش
ليكون درساً عملياً فى حل المشكلات الاجتماعية ، يعلم الناس
أنها لا تتعقد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها ؛ ولا تستمر
بقوتها ، ولكن بامداد قواهم لها ؛ ولا تغلب بصولتها ، ولكن
بجزعهم منها ؛ ولا تُعزل من ذات نفسها ، ولكن من سوء
أثرهم عليها ، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها .

قالت عائشة رضى الله عنها : لم يمتلى جوف النبى صلى الله عليه
وسلم شبعاً قط ، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاه ،
إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب .
وقالت : ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين
حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وعنها : كنا آل محمد نمكث شهراً مانستوقد بنار ، إن هو
إلا التمر والماء .

وقالت : ما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قط غداءً
لعشاء ، ولا عشاء لغداء ، ولا اتخذ من شيء زوجين ، لا قميصين ،
ولا ردائين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .
ويروى عنها ، قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وليس عندى شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رَفٍّ لى .
وقالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة
عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت
الليالى المتتابعة وأهله طاولاً لا يجدون عشاءً ، وإنما كان
خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : « والله ما أمسى فى آل محمد صاعٌ من طعام ، وإنها لتسعة
آيات » والله ما قلها استقلالاً لذكر الله ، ولكن أراد أن تتأسى
به أمتة .

وعن ابن مجير ، قال : أصاب النبى صلى الله عليه وسلم جوعٌ
يوماً فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال : « ألا ربّ نفس
طاعمة ناعمة فى الدنيا - جائعة عارية يوم القيامة ؛ ألا ربّ مكرم

فإذا قرأت الأحاديث التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتَقَلُّلاً ، ولا فقراً وجوعاً ، ولا اختلالاً وحاجة ، كما تترجمها نفسك أو تحسمها ضرورتك ؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو صلى الله عليه وسلم ، ثم اقرأها شريعة اجتماعية مفصلة على طبيعة النفس ، قائمة على أن تأخذ نفس الإنسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية ، لتعطى الحياة من ذلك قوة عناصرها . والحياة العاملة غير الحياة الوداعة ، هما ذكر وأنثى ؛ فأما الأولى فهي ما وصفنا وحكينا ، وأما الثانية فهي تغلغل النعمة ، وإطلاق قانون التناسل في المال ينمى بعضه بعضاً ، وينبت بعضه على بعض ، ثم إقامة الحياة على الزينة ومقوماتها ، وقيام الزينة على الخداع وطبائعه ، فيقبل المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفه عنها ، ويحب منها ما كان ينبغي أن يباغضه فيها . وكل ما رأيت وعلمت في رجل قوته القوة فهو هناك ؛ وكل ما علمت ورأيت في أنثى قوتها الضعف فهو هنا . فالسواد الذي تراه في فقره صلى الله عليه وسلم هو السواد الحى ؛ سواد الليل حول الروح النجمية الساطعة ؛ وذلك التراب هو التراب الحى ؛ تراب الزرع تحت النضرة والخضرة ؛ وتلك الحاجة الجسمية هي الحاجة الحية الدافعة الى حرية النفس ؛ وذلك الاقلال من فهم اللذة هو الاقلال الحى الذى يزيد قوة فهم الجمال في السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيق في حيز المتاع للحاسة هو الضيق الحى الذى يوسع حيز المتاع للروح . وبالجمله فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفي النقص عن الفضيلة ، وذلك الاحتقار للعرض الفانى الزائل هو المعنى الآخر لتقديس الخالد الباقي .

فليس هناك خبز الشعير ، ولا الجوع ، ولا رهن الدرع عند اليهودى . كلا ، كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ، ثابتة مترنة ، قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، الى الرفق والحلم والتواضع ، تخبر هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعى التام بأخلاقه وفضائله ، وهو الذى بُعث لتنقيح غريزة تنازع البقاء ، وكسر هذه الحيوانية ، وقمع نزواتها ، وإماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها فهو بنفسه صورة الكمال الذى بعث لتحقيقه ، وإثبات أنه

الممكن لا الممتنع ، والحقيقى لا الخيالى .

ليس هناك درع مرهونة في ثلاثين صاعاً ، ولا الفقر ، ولا خبز الشعير . كلا ، كلا ، بل هناك تقرير أن النصر في معركة الحياة لا يأتى من المال والثراء والمتاع ، ولكن من المعاناة والشدة والصبر ، وأن التقدم الانسانى لا يباع بيعاً ، ولا يؤخذ هوناً ، بل هو انتزاع من الحوادث بالاخلاق التى تتغلب على الأزمات ولا تتغلب الأزمات عليها ، وأن هذا المال وهذه الشهوات — فى حقائق الحياة ومصائرهما — ككنوز الأحلام لا تكون كنوزاً إلا فى مواضعها من أرض الغفلة والنوم ، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة . وليس إلا الأحمق أو المخدول أو الضائع هو الذى يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكاً أبداً لهذه الكنوز ، وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ ، وأنه متى انتبه فى آخرته لم يجد منها شيئاً « ووجد الله عنده فوفاه حسابه »

كلا ، كلا ، ليس هناك فقر ولا جوع وما إليهما ، بل هناك وضع هذه الحقيقة : ينبغى أن تجد نفسك ، وموضع نفسك ، وإيمان نفسك ، وعزة نفسك ، فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسك الى موضعها الحق ، وأقررتها فيه وحبستها عليه ، وحدبتها بالانسانية من ناحية ، وباللذة من الناحية المقابلة — رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة فى أن تكون وسيلة تعطى وتعمل لتعطى ، لا غاية تأخذ وتعمل لتأخذ — ومهما ضيق عليك ، فانما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ تراباً وتصنع حلاوة . وما قط نبتت شجرة فى مكانها لتأكل وتشرب وتخزن السواد والتراب ، وتحصنها وتمنعها عن غيرها ، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل ، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم ، فيكون طمعها سريعاً فى إفساد الصلة بينهما ، فلا يجد القانون فيها نظامه ، ومن ثم لا تجد فى القانون نظامها ، فيهلكها الذى كان يحياها ، وتستعبد لحظ نفسها فيفقددها ذلك حرية الحياة التى كانت لها فى نفسها .

يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن بكل خير على كل حال ، إن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل . » فهذا هو أسى قانون اجتماعى يمكن أن تظفر به الانسانية

رموز الحياة على التحلل من خلق الأثر ، والبراءة من هوى الترف ؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع ؛ والعُسرة رمز ثالث على مجاهدة الملل الحى الذى يفسد الحياة كما يفسد بعض النبات النبات . ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الايقاظ النفسى للأمة العزيزة التى تقود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع ، لتكون فى كل فرد مادة الجيش ، وليصلح هذا الجيش قائداً للانسانية .

على أنه صلى الله عليه وسلم حث على طلب اليسار ، والتغلل من الأعمال الشريفة بالغلة والمال ، فقال : « إنك إن تدع عيالك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس » . ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له من زهده وعبادته ، فقال صلى الله عليه وسلم : من يعوله ؟ قالوا كلنا نعوله . فقال : كلكم خير منه ! . إلى أحاديث كثيرة مروية ، هى تمام القانون الأدبى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إن هو إلا عمل الحى . ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعته رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكدح لعيشه ، ويجوع يوماً ويشبع يوماً ، فلم يقلب يده فى تلاد من المال يرثه ولم يجمعها على طريف منه يورثه - فذلك هو ما بيناه وشرحناه وذلك كالأمر نافذاً لارخصة فيه على ألا يتخذ الغنى من الفقير عبداً اجتماعياً ، لفقر هذا ولمال ذاك ؛ بل هى المساواة النفسية لا غيرها ، وإن اختلفت طبقات الاجتماع . والأكرم هو الأتقى لله ، بمعنى التقوى ؛ والأقوم بالواجب ، على معنى الواجب ؛ والأكفاً للانسانية ، فى معانى الانسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقرراً ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكائنة فى طبيعة التملك ، لقيام التعاون الانسانى على أساسه العملى ؛ هو المحاجة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية يمنع أن تأكل مصلحة مصلحة فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحة مصلحة لتحيا بها .

والنبي الفقير العظيم هو فى التاريخ من وراء كل هذه المعانى كالقاضى الجالس وراء مواد القانون . صلى الله عليه وسلم . ما

مصطفى صادق الرافعى

وما يأتى لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعانى التى أومأنا إليها شعوراً اجتماعياً عاماً ، مقررراً فى النفس ، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها ، وأن الناس كحب القمح فى السنبلة ليس لجميعه إلا قانون واحد ، فوضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها ، علت أو سفلت ، وكثر ما تأخذ أو قل ، وإذا كان أساس الحياة فى الحبة منها أن تجد قوامها وكفائتها من مادة الأرض فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها ، وأن يستمر النور من حولها يغمرها .

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتزرع وما بها أنها تزرعت ، ولكنها أدت ما تؤدى ، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره ، وما اغتنت ولا افتقرت ، ولا أكثر ولا أخففت ؛ بل حققت موضعها ، فانها ما نبتت لتبقى ، وما نمت إلا لينقطع نماؤها . وكذلك المؤمن الصحيح الايمان ، الصادق النظر فى الحياة ؛ هو أبداً فى قانون آخرته ؛ فهو أبداً فى عمل ضميره .

والناس فى هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء ؛ فاذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُفَضُّون إلى هذه النهاية مرواً آمنين وكان فى يقينهم السلامة ، وفى صبرهم الوقاية ، وفى نظامهم التوفيق ، وفى تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، مادام هذا قانون جميعهم ، فأبداً رجل شذ منهم فاضطرب فطاش هلك وأهلك من حوله ، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه أهلك من حوله وهلك . والموت أشقى الموت هنا - اعتبار الحاضر بنفسه ، والضجر منه ، وجعل الانسان نفسه غاية ؛ والحياة هنا الحياة - اعتباره بما وراءه ، والصبر على شدته ، وجعل الانسان نفسه وسيلة .

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق ، ورهن الدرع عند يهودى من سيد الخلق وأكملهم ، ومن لو شاء لمشى على أرض من الذهب . فهو صلى الله عليه وسلم يعلم الانسانية أن الرجل العظيم النفس لا يكون فى الحياة إلا ضيقاً نازلاً على نفسه . ومن معانى ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من